"القانــون فــوق الكـــل" شعـــار موجـــود على الحيطـــان

استيراد أطباء أجانب.. فمن يدفع "الفصل العشائري" بدلاً عنهم؟

قنبلة انفجرت، حطمت ساقه اليسرى... شظايا تناثرت في الساق اليمنى، تهشم وجهه وتفحم جلده، حيدر 17 عاماً يقف صباح ذلك اليوم الذي انفجرت فيه عبوة زرعت في دراجة نارية، لالتقاط فرصة عمل في تقاطع مزدحم، يربط مدينة الصدر مع منطقة الحبيبية، تجمعت عائلته حول سريره في مستشفى "الإمام علي". الوضع متأزم، العائلة والأقارب والجيران تنتظر إنقاذ حياة حيدر، الطبيب قلق وخائف من حدوث ثورة وهيجان عشائري، لو لم يستطع إنقاذ حياته، فالقدر قد يفعل فعلته، ويرسل بروحه إلى الجنة، مرت الساعات الخطرة، وبدأ حيدر يستعيد وعيه، والده الرجل الستيني يعبر عن شكره للطبيب، بعد أن حرك بأصابعه مجموعة من خرز مسبحة كان طوال الوقت يحركها بين كفيه: لن ننسى فضلك يا دكتور.

□ بغداد/ إيناس طارق.. عدسة/ محمود رؤوف

تشابك بالأيدي

في المقابل، نجد أن إحدى الزميلات الإعلاميات تقوم بمشاجرة طبيبة في مستشفى اليرموك التعليمي، وتصـرخ في وجـهـها وتتهمها بالتقصير، ولولا تدخل أهل الخير لتحول الأمر الى "صراخ وتشابك بالأيدي"، لان والدها شارف على فقدان حياته بسبب مرضه المزمن، فهو مصاب بداء السكري والضغط، وتعـرّض إلى ٣ جلطات دماغية، الزميلة كانت غاضبة لأن والدها توفي، وكان على الأطباء إنقاذ حياته بأية وسيلة كانت .

حالتان تختلف الواحدة عن الأخرى، لكن العامل المشترك بينهما هو الأطبـاء الذين أصبحوا "فريسة " لعوائل المرضى ومن يتوفاهم الأجل.

فهل الوقت الآن حان لتشكيل وزارة خاصة تعنى بشـؤون الأطبـاء لإنقاذهم من محنتهم، فالقضية الآن أصبحت تحتاج إلى دعم ومساندة، خصـوصـا أن مسلسل الفصل العشائري أصبح هو الوتر الذي يعزف عليه كل من هبّ ودبّ، وبكل صراحة أصبح الفصل العشائري الآن هو وسيلة لكسب المال السريع على حساب الآخرين، وتهديدهم وإن كانوا لا يتحملون مسؤولية ما حدث، وفي جميع الأحوال عليهم دفع الفدية المالية.

إرهاب سياسي عشائري

إن أهم الأسباب لهجرة الأطباء التي بـدأت في نـهـاية السبعينيات هو الوضع السياسي المتردي، فخرجت جموع الأطباء بصفات مختلفة لكي تتخلص من الابتزاز والقهر والفقر، فهناك من خرج بصفة عامل، وآخر بصفة سائق تاكسي وآخـر بصفة نجار، تعددت المهن المُفتعلة للأطباء لكن الهدف واحد، وهو الخروج من عنق الزجاجة التي أحكم صدام عليها. واستمرت هجرة الأطباء حتى بعد سقوط النظام بعد أن تحول السبب من إرهـاب سياسي بعثي وحصار اقتصادي عالمي إلى قتل على الهوية الطائفية، واستمرار التدهور الأمني في البلاد. كل هذه العوامل وغيرها أدت بالنتيجة إلى فقدان العراق الكوادر العلمية الطبية والصحية. وجاء عامل آخر لم يكن في الحسبان من قبل وهو تدخل العامل العشائري والقبلي في عمل الأطبـاء ونوعيته ما أدى بالنتيجة الى هروب جماعي آخر للأطباء وما زالوا يصلون إلى دول المهجر وتقدم لهم التسهيلات في البقاء عبر منحهم اللجوء.

فقبل شهرين تعرضت طبيبة الى السجن في محافظة السماوة بسبب خطأ طبي غير متعمد ومطالبة أهل المتوفاة بـ١٥٠ مليون دينار كفصل عشائري،إذن المسألة ليست حياة إنسـان وإنمـا الفصل العشائري ومن لا يدفع فمصيره معروف، في العرف العشائري اليوم القتل، وقبل عدة اسابيع وفي محافظة صلاح الدين حدثت وفاة لمريض وصل الى المستشفى بحالة صعبة جدا، وبدأ الاعتداء من قبل "رجال" الشرطة على الكادر الصحي لان زميلهم توفي بعد أن أصيب بعبوة ناسفة زرعت أسفل مقعده الأمامي في السيارة ، أما الحادث الآخر فيذكر أن طبيب تخدير دفع الفصل العشائري بسبب وفـاة مريض كـان مصابـا بمرض عضال وهو كبير السن.

مقتل 400 طبيب

نتيجة لذلك وبسبب قلة الكادر الطبي والصحي في العراق ذكرت بعض وسائل الإعلام انه تم التعاقد من قبل الجهات الصحية العراقية على استيراد ١٥٠ طبيب تخدير مع كـادر من الممرضات من الهند والفيليبين، لكن لم يذكر البيان في هذه الخطوة كيف ستحمي الدولة الأطباء والممرضات المستوردين من العراق والذين يعملون بعقود ، وما موقف العشائر منهم ومن سوف يدفع لهم الفصل العشائري في حالة وفـاة المريض أثـنـاء التـخدير من قبل الطبيب الهندي؟ ويطالبون مَن بدفع الفصل الحكومة العراقية أم الهندية؟!! ويكشف المتحدث باسم الصحة زيـاد طارق أن عدد الأطباء الذين قتلوا بعد عام ٢٠٠٣، إلى الآن يصل الى ما يقارب الاربعمئة طبيب ، بينما تـرك العراق خـلال فترة عام ١٩٩١، والى الآن ما يقارب العشرين ألـف طبيـب. وشكلت خسـارة هذا العدد الكبير من العاملين في مجال الرعـاية الصحية انخفاضا مدمرا في مستوى تقديم الخدمات الطبية التي تعاني أساسا من الفساد وسوء الإدارة ونقص المعدات والأدوية.

تقارير دولية

فيما تشير تـقـارير دولـيـة صادرة عن منظمات معنية بالشأن الطبي في بـريطانيا، إلى أن من مجموع المختطفين وعمليات التهديد التي تـعـرض لـهـا عـراقـيـون مـن ذوي الكـفـاءات نسبة الأطبـاء فيها ٣,٧ ١٦٤٢; بينما نسبة القتل تصل إلى ١,٦٪ خلال سنوات العنف الممتدة ما بين ٢٠٠٤ و ٢٠٠٧ .

ويستمر التقرير ليؤكد بقاء ما يقارب التسعة آلاف طبيب فقط لمعالجة ٢٨ مليون عراقي، وهو ما يشكل نسبة ستة أطبـاء لكل ١٠ آلاف مواطن، مقارنة بـ٢٦ للعدد نفسه في المملكة المتحدة البريطانية .

عناية خاصة

بأنتظار عودة الطبيب

إلى ذلك، سعت الحكومة إلى إقناع العديد من الأطباء بالعودة إلى البلاد ، والتحرك لأخذ تدابير لبناء الثقة وتـوفـير الحماية لهم من عصابات الخطف التي تستهدفهم.

فيما يكشف تقرير آخـر صـادر عن منظمة الصحة العالمية أن فقدان الـعـراق لـعـدد مـن أطـبـاء أدى الى الـتـدهـور الـسـريـع في الخـدمـات الصحية، والرعاية الصحية الأولية، مشيرا إلى أن الوضع الصحي في الـعـراق لا يظهر اي تحسن فيه، لافتا ان معدل الوفيات التي تتراوح أعـمـارهـم مـا بـيـن ١٥-٥٩ شخصا ترتفع لتصل ٢٢٢ وفاة من مجموع ١٠٠٠ حـالـة ، مـقـارنـة مـع المعدل العالمي البالغ ١٧٦ حالة .

تشجيع العائدين من الأطباء

مـن جـهـتـه، أفـاد أزهـر الموسوي وكيل وزارة الهجرة والمهجرين بأن خطط الحكومة العراقية الخاصة بـالـنـازحـيـن والـعـائـديـن قـد لا تـنـفـذ بصورة كاملة هذا العام بسبب نقص التمويل، وأضاف أزهر قائلاً: "لقد قمنا بإنشاء الكثير من المشروعات الكبيرة هذا العام ولكن الـوزارة قد لا تكون قادرة على تنفيذ التزاماتها"، وكانت الحكومة العراقية قد أعلنت في يناير عن خطط لمعالجة النزوح الداخلي ومراقبة أوضاع اللاجئين العراقيين في الخـارج ومساعدتهم. كما سعت إلى تشجيع النازحين على العودة إلى مناطقهم الأصلية والبقاء في المناطق التي انتهى بهم المطاف فيها أو مساعدتهم على الانتقال إلى منطقة جديدة.

وقد قامت الحكومة أيضاً بإنشاء "مراكز المساعدة على العودة" في بغداد وقدمت حزمة من المساعدات المالية بلغت ٨٥٠ دولاراً وتعويض عـن قيمـة إيـجـار لمـدة ستـة أشهر للمسجلين من الـنـازحـين، وقـال المـوسـوي "لدينا خطط لمعالجة النزوح الداخلي ومساعدة العائدين وتشجيع العاملين في الخارج الذين فروا من العنف على العودة وخاصة الأطبـاء والمدرسـين ولكن كل هذه الخطط بحاجة إلى المال وما لدينا ليس كافياً.

وطبقاً لما ذكره وولـتـر كالين، ممثل الأمـين العام لـلأمم المتحدة لحقوق النازحين، فإن حجم التهجير القسري تاريخه في العراق خلق موقفاً معقداً يحتاج إلى "إستراتيجية شاملة" لمعالجة الاحـتـيـاجـات الإنسانية العاجلة وقضايا حقوق الإنسان للمجتمعات المتضررة من النزوح وإيجاد الحلول الدائمة لها.

اغتيال الأطباء

قتل الأسـتـاذ الـدكـتـور محـمـد عبد الله الـراوي، رئيس جامعة بغداد، ونقيب الأطبـاء العراقيين، وزميل الكلية الملكية الطبية، واختصاص الباطنية، في عيادته الطبية بمنطقة المنصور عام ٢٠٠٣، ومن ثم اغتيل الاستاذ الدكتور عماد سرسم، أستاذ جراحة العظام والكسور، وزميل كلية الجراحين الملكية، عميد كلية الطب في جامعة بغداد سابقاً، عضو الهيئة الإداريـة لنقابة الأطباء العراقيين، وعضو اتحـاد الأطبـاء العرب عام ٢٠٠٤، والـدكـتـور العـمـيـد صادق العبادي، اغتيل يوم ٢٠٠٤/٩/١ في منطقة الشعب في بغداد عند دخوله المجمع الطبي الـذي شيده لتقديم الخدمات الطبية وبأسعار رمزية.

وفي الاعـوام الـتـي لحقتها اغتيل الاطبـاء : سـالم عبد الحميد، عميد كلية الطب، الجامعة المستنصرية، اختصاص طب وقائي، وحسان عبد علي داود الربيعي، مساعد عميد كلية الطب، جامعة بغداد، وعقيل عبد الجبار البهادلي، معاون عميد كلية الطب، جامعة النهرين، واغتيل الدكتور العميد منذر البياتي، أمام داره في السيدية يوم ٢٠٠٥/٦/١٨، والدكتور عبد الله صاحب يونس، مدير مستشفى النعمان التعليمي في الأعظمية، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٥/١٨، كـمـا اغـتـيـل مـحـمـد فـلاح هـويـدي الجزائري، في جامعة النهرين، كلية الطب، اختصاص جراحة تقويمية، يـوم عـودتـه من أداء فريضة الحج مطلع عـام ٢٠٠٦ وهـو طبيب في مستشفى الكاظمية التعليمي، وهم جميعا أساتذة وكادر علمي متميز في الجامعات العراقية.

مسلحون مجهولون

وفي يـوم ٢٩ /٢٠١٠/٦ اغتال مسلحون مجهولون طبيباً عراقيا من ذوي الاختصاصات النادرة في مجال معالجة الأورام السرطانية بهجوم مسلح في منطقة (الحارثية). ونقلت مصادر إعلامية عن مصدر أمني حكومي:" إن مسلحين مجهولين قـامـوا بـفـتـح الـنـار عـلـى الطبيب البروفسور علي زيـدان الصائغ المختص في الأمراض السرطانية في منطقة الحارثية ببغداد، وأردوه قتيلاً على الفور". وأوضح المصدر: أن الصائغ قد عاد إلى الوطن قبل أيام قليلة وهو اختصاصي في الأمراض السرطانية وجراحة الرأس."

كما اغتال مسلحون مجهولون في وقت متأخر من ليلة ٢٤-١١-٢٠١٠ أحـد الأطـبـاء الجـراحـين بهجوم مسلح عندما فتحوا نيران أسلحتهم عليهما في منطقة حي العدل. ونقلت مصادر إعلامية عن مصدر أمني حكومي:" أن مسلحين مجهولين أطـلـقـوا الـنـار عـلـى سـيـارة مدنية نـوع (كـورلا) بالقرب من الأسواق المـركـزيـة في منـطـقـة حـي الـعـدل، يقودها الدكتور وسام علي كريم بصحبة أحد أقربائه وهو موظف في الطيران المدني وأردوهما قتيلين في الحال ."

إلى ذلـك، قالت مصادر الشرطة إن "مسلحين مجهولين اقتحموا فجر الأربـعـاء في الشهر الثامن من عام ٢٠١١ منزل الدكتورة انتصار حسن محـمـد مـديـرة مستشفى العلوية للولادة وأطلقوا عليها النار واردوها قتيلة."

وأكد المصدر أن "المسلحين سرقوا مبـالـغ مـالـيـة ومـصـوغـات ذهبية، لكنهم ابقوا على زوجها مقيدا داخل المنزل"، وقالت الشرطة إن "العملية ذات دوافع تخريبية وليست لغاية السرقة."

إلى ذلك، يؤكد نقيب أطباء كركوك الطبيب محسـن عـبـد المجـيـد أن الأطباء مستهدفون بالقتل والخطف، وقال: "منذ نهاية عام ٢٠٠٤ وحتى الآن دفعوا أكثر من مليون ونصف المليون دولار، مشيرا إلى أن كل طبيب خطف، دفع فدية ما بين ٢٥٠ إلى ٥٠٠ ألف دولار."

قانون حماية الأطباء

يشار إلى أن الحكومة العراقية وافقت على مشروع قانون لحماية الأطباء، بعد تدقيقه من قبل مجلس شورى الدولة وإحالته إلى مجلس النواب لمناقشته والتصويت عليه في وقت سابق .

ويوفر مشروع القانون ضمانات مهمة لـلأطبـاء الـعـراقـيـين، وتأمل الحكومة في أن يسهم إقراره بوقف هجرة الأطباء وتشجيع المهاجرين منـهـم عـلـى الـعـودة، كـمـا سيشكل القـانـون مظلة لتأمين الطبيب من ردود فعل المجتمع إزاء عمله قبل كل شيء، وحمايته من مخاطر العمليات الإرهـابـيـة، وبمـوجـب مرسوم حكومي آخر أمرت بـأن يسمح لكل الأطباء بحمل سلاح واحد لحماية نفسه."

مجلس النواب

من جانبه، يحمّل عضو لجنة الأمن والدفاع البرلمانية الجهات التنفيذية المسـؤولـيـة عـن تـطـبـيـق قـرارات وتشريعات مجلس النواب.

الـنـائـب حـامـد المطلك يـعـتـبر أن استهداف الأطباء يمثل استهدافاً لكل فئات الشعب، وان التعمد باغتيال هذه الشريحة يراد من ورائه إفراغ الـبـلاد مـن الـكـوادر الـعـلـمـيـة على أساس عمل إرهابي مبرمج ومنظم، مشددا على أن مجلس الـنـواب لم يعد يستطيع مجاراة الفساد والقتل والخـروقـات الأمـنـيـة الـتـي تـحـدث في البلاد، رافضا في الوقت نفسه وصف المجلس بـ(العجز) عن لعب دور في حماية المواطن، لافتا إلى أن الـبـرلمـان يـخـرج بتوصيات إلى الحكومة "الجهة التنفيذية" وهي لا تقوم بواجبها.

مـن جـانـب آخـر، اعـتـبر المطلك الاضطرابات السياسية والخلافات الـتـي تـجـري بـين الـكـتـل البرلمانية والـقـادة السياسيين السبب وراء حـدوث أزمـات أمنية تستهدف كل فترة شريحة وجهة معينة، محاولة أن تأزم الوضع أكثر مما هو عليه.

كما يتعرض الأطبـاء إلى مخاطر أخـرى غـيـر الـقـتـل والـتـهـديـدات بـالـخـطـف ، وهـي الـمـلاحـقـات والمطالبات بالفصل العشائري، وهي ما سببت خسارة أخرى لقطاع الصحة ورفض الكثير من أطباء "الجراحة" خصوصا إجراء عمليات خوفا من محاسبة "العشيرة ."

تقرير دولي: فقدان العراق لعدد من الأطباء أدى إلى التدهور السريع في الخدمات الصحية، والرعاية الأولية

وزارة الصحة: عدد الأطباء الذين قتلوا بعد عام 2003، إلى الآن يصل إلى ما يقارب الأربعمئة طبيب، بينما ترك العراق خلال فترة عام 1991، والى الآن ما يقارب العشرين ألف طبيب